

# سيرة

## الإمام أبي حامد الغزالي ومكانته

د. عبد الكريم اليافي

سماء التراث العربي الاسلامي كواكب منيرة وهاجة تبعث بسناها العذب الى العقول المتفتحة للالهام تضاهي وتنافس في توهجها كواكب القبة الزرقاء التي تهدي عيون السارين وتلطف دياجير الظلام . هذه النيرات الدرية قد تنطفئ ولكن أنوارها تمكث في وصولها اليها آلاف السنين . وتلك النيرات العقلية نطل نطالع أنوارها الفكرية آلاف السنين أيضاً . بل الأنوار الفكرية على رهاقتها أخلد سناً وأبعد مدى وأكثر هدى من أضواء تلك النجوم .



من نجوم التراث العربي الاسلامي أبو حامد الغزالي الذي مضى في هذا العام الهجري على وفاته تسعمائة عام والذي ينسب اليه ما يقارب أربعمئة كتاب ورسالة صح منها ما يناهز سبعين سِفرأ في ابدان حياة لم تتجاوز خمساً وخمسين سنة، أي انه عاش وكأنما يراعه ملصق بأنامله الثلاث كالفارس الكمي لا يترك سيفه ولا يغادر عتاده الحربي .

وكما أن الكواكب قد يتجمع بعضها فتؤلف بروجاً ، كذلك في سماء الفكر كواكب عقلية تتجمع بأصرة النسب فتؤلف بيوتات علمية أو فنية . وتتفاوت أفراد هذه البيوتات في تألقها وتوقد نورها شدة وخفوتاً بحسب ما تقدمه للانسانية من طاقة فكرية وعلمية . وهكذا نجد في بيت الغزالي أربعة علماء أشهرهم أبو حامد . وهو المقصود اليوم في الحديث . والى جانبه في التلألؤ أخوه أبو الفتوح الفقيه الصوفي ، وقد اشتهر بمواعظه وبكتبه التي من أشهرها

« سوانح العشاق » كتبه بالفارسية • قال فيه المستشرق الألماني هلموت ريتير :  
« من العسير أن نجد كتاباً بلغ النفوذ النفسي فيه هذه الغزارة » وقد توفي  
بقزوين سنة عشرين وخمسائة أي بعد أبي حامد بخمس عشرة سنة ، وقبلهما  
عمهما أو عم أبيهما أحمد بن محمد المعروف بالغزالي الكبير وهو يوافق حجة  
الاسلام في النسبة والكنية واسم الأب توفي بين الأربعمئة والخمسائة • وعنه أخذ  
الزاهد أبو علي الفارمذي • وبعدهم جميعاً بنحو ثلاثة قرون حفيد متأخر ربما  
كان حجة الاسلام أو أخوه جده الثامن أو التاسع وهو محمد بن محمد الغزالي  
الطوسي توفي سنة ثلاثين وثمانمئة •

نسبة أبي حامد بتشديد الزاي نسبة الى صنعة أبيه وجده • أما هو فلم يكن  
ممن يغزل الصوف ويبيعه • ويقال ان ياء النسبة زيدت على عادة أهل خوارزم  
وجرجان للتأكيد كما قالوا عطاري وقصاري مثلاً أي عطار وقصار • وقيل انها  
بتخفيف الزاي نسبة الى غزالة قرية قريبة من طوس • وكانت طوس هذه التي  
ينسب اليها الامام أعظم مدينة في خراسان بعد نيسابور • خرج منها من أئمة العلم  
والفقه من لا يحصون وأهمهم أبو حامد وأخوه ونظام الملك الوزير السلجوقي  
الشهير • وقد خربها المغول في القرن السابع الهجري وقامت على أنقاضها  
مدينة مشهد في القرن الثامن وفيها قبر الامام علي بن موسى الرضا وقبر الخليفة  
العباسي هارون الرشيد وقبر الغزالي نفسه •

لحجة الاسلام جوانب متعددة متضافرة رفعت اسمه الى أوج الشهرة في  
الشرق وفي الغرب وفي مختلف العصور • فهو عالم في الأصول ، أصول الفقه ، وهو  
فقيه شافعي حر ، وهو متكلم أشعري بارز ، وهو فيلسوف له أسلوب متفرد وان كان  
ناهض الفلسفة وحاول أن يقوِّض بنيان الفلاسفة ، وهو صوفي دعم التجرد والزهد  
والعلم اللدني ، وهو مرب ومعلم عالج شؤون التربية والتعليم ومارسها ، وهو  
باحث نفسي لمس خلجات القلوب وصوِّر خواطر النفوس وخفيات الضمائر ، وهو  
مفكر اجتماعي عرف صروف دهره وبلا أحوال مجتمعه وحاول أن يحمي ذلك  
المجتمع من التفرق والتشتت وأن يلم كيانه من التشعث والتمزق ، وهو كاتب  
مبين يأتي في طلائع أرباب البيان قل أن يؤتى عالم فقيه مثل بيانه الحي النابض  
المتوثب المتماسك • وهو قبل كل شيء وبعد كل شيء ظامي الى تعرف كل شيء

نهم في جميع أنواع العلوم • وهكذا نجد تعدد جوانب شخصيته وتضافرها جعلها الباحثين يتأملون خصبه وغناه الفكري • مثله أيضاً مثل العلم الشاهق والجبل الباسق تطل شعافه وذراه على آفاق مديدة وجواء بعيدة • وقد غدت سيرة حياته ومجمل تعاليمه واضحة شيئاً من الوضوح • ومع ذلك فلا بد من الامام بها والتنويه بمعاملها ومزاياها في هذه المناسبة وهي الذكرى المئوية التاسعة لوفاته •

أهم ما يميز هذا العلم الفرد الذكاء المفرط والاستبحار في المعرفة وقوة البيان واخلاصه للفكر ونحن نعتمد في رسم مراحل حياته على مترجميه القدماء الكثر ولا سيما السبكي في « طبقات الشافعية » فان بيان الأوائل يجمع بين التلخيص الدقيق والاحاطة الوافية •

ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس ، كما سلف آناً • فلما حضرته الوفاة وصّى به وبأخيه أحمد الى صديق له متصوف من أهل الخير وقال له : ان لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط وأشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين فعلمتهما ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلّفه لهما • هذا ما يعلي شأن هذا الوالد الطيب الحريص على تربية ولديه وتعليمهما • فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما الى أن فني ذلك النزر اليسير الذي خلفه لهما أبوهما وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما • فقال لهما : اعلمنا أنني قد أنفقت عليكما ما كان لكما • وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما • وأصلح ما أرى لكما أن تلجأ الى مدرسة كأنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما ففعلاً ذلك • وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهم • وكان الغزالي يحكي هذا ويقول : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا لله • »

وهنا نريد أن نعلق على هذه النكتة • فكثيراً ما نسمع بتشرّد الأحداث وجنوحهم بسبب الفقر • وهذا ما لا مرية فيه • ولكننا نقول : قد يكون الفقر حافزاً على العلم والجهد والتقدم اذا كانت البيئة الاجتماعية صالحة والمواهب متوافرة • نستطيع أن نعد الفقر بمنزلة التحدي للفرد والمجتمع فهو من العوامل المؤثرة باتجاهين متقابلين • كذلك نشير الى ان المدارس في الحضارة العربية الاسلامية كانت مجانية بل كانت تنفق على طلبتها نفقات مناسبة • ويحكي

أيضاً « أن أباه كان فقيراً صالحاً لا يأكل الا من كسب يده في عمل غزل الصوف .  
ويطوف على المتفكّهة ويجالسهم ويتوفر على خدمتهم ويجدّ في الاحسان اليهم  
والنفقة بما يمكنه وأنه كان اذا سمع كلامهم بكى وتضرع وسأل الله أن يرزقه  
ابناً ويجعله فقيهاً ويحضر مجالس الوعظ، فاذا طاب وقته بكى وسأل الله أن يرزقه  
ابناً واعظاً . فاستجاب الله دعوتيه .

ويعلق السبكي على ذلك بقوله : أما أبو حامد فكان أفقه أقرانه وامام أهل  
زمانه وفارس ميدانه ، كلمته شهد بها الموافق والمخالف وأقر بحقيقتها المعادي  
والمخالف . وأما أحمد فكان واعظاً تنفلق الصم الصخور عند استماع تحذيره  
وترعد فرائص الحاضرين في مجالس تذكيره .

ويصعب علينا أن نتقرّى أصل الغزالي أفارسي هو أم عربي . وليس  
لهذا عندنا كبير شأن . ذلك أن الشعوب اختلطت اختلاطاً عجيباً في غمار الحضارة  
العربية الاسلامية اذ لا فرق فيها بين عربي وعجمي الا بالتقوى ومكارم الأخلاق  
وتحقيق القيم الرفيعة ولا سيما العلم الذي أمر بتلقيه وبنشره الاسلام . وآبأؤه  
الثلاثة الذين يذكرهم المترجمون له أسماؤهم عربية وهو وان كان قد ولد بطوس  
ذو ثقافة عربية أصيلة تغلب على أي ثقافة أخرى . ثم ان القبائل العربية قد  
هاجرت مع الفتح والتحرير الى مختلف الأقطار واستقرت حيث طاب لها  
الاستقرار . فالاختلاط والمساواة بين الناس وعدم التفرقة الا في مضمار المعالي  
وتحقيق المكارم احدى مزايا الحضارة العربية الرفيعة .

قرأ الفتى محمد في صباه طرفاً من الفقه في بلده طوس ثم سافر الى جرجان  
اذ كانت مركزاً علمياً متألّفاً فأخذ عن أبي نصر الاسماعيلي وكتب ما أخذه عنه  
في أمالي دعاها « التعليقة » ثم رجع الى طوس . روي عنه قال : « قطعت علينا  
الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا فتبعتهم . فالتفت اليّ مقدمهم  
وقال : ارجع ويحك والا هلك . فقلت له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه  
أن ترد عليّ تعليقتي فقط . فما هي بشيء تنتفعون به . فقال لي : وما  
تعليقتك ؟ فقلت : كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها .  
فضحك وقال : كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من  
معرفتها وبقيت بلا علم . ثم أمر بعض أصحابه فسلم اليّ المخلاة . »

قال الغزالي : فقلت هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري . فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقتة ، وصرت بحيث لو قطع الطريق لم أتجد من علمي .

وهنا ننتبه لموقف الغزالي الحريص على العلم كحرصه على حياته . فهو ينزل لقطاع الطريق عن جميع ما معه ويخاطر بحياته فيسألهم أن يردوا عليه تعليقاته فقط . ثم ها هو ذا يفيد من هذه الحادثة فيستظهر بعد رجوعه جميع ما علّقه اذ يدرك أن العلم كما قالوا انما هو في الصدور لا في السطور .

وهنا أيضاً نحتاج الى ايضاح مشكلة . فقد روى مترجموه ومنهم السبكي وابن الملقن أنه هاجر الى جرجان ليأخذ العلم عن أبي نصر الاسماعيلي ، كما مر آنفاً وكما يذكر الرواة .

وقد رجعنا الى « تاريخ جرجان » لحمزة بن يوسف السهمي والى كتاب « الأنساب » للسمعاني والى « سير أعلام النبلاء » للذهبي فوجدنا اجماعاً على وفاة أبي نصر الاسماعيلي الجرجاني عام ٤٠٥ أي قبل ولادة الغزالي بخمس وأربعين سنة وعلمنا من تصفح هذه الكتب المهمة أن أبا بكر أحمد بن ابراهيم الاسماعيلي من كبار أئمة العلم توفي عام ٣٧١ ، وأنه جاء منه جماعة كلهم أئمة وعلماء منهم أبو نصر محمد بن أحمد الذي ذكر العلماء انه من مشايخ الغزالي وذلك سهو ، ومنهم أبو سعد اسماعيل بن أحمد الذي توفي عام ٣٩٦ ولهذا ولدان معروفان أحدهما أبو معمر الفضل بن اسماعيل توفي عام ٤٣١ والثاني أبو الفضل مسعدة بن اسماعيل . ولمسعدة هذا ولد هو أبو القاسم اسماعيل كان رئيساً وعالمأ كبيراً وينقل السبكي عن أبي محمد الجرجاني أن أبا القاسم انتهى اليه في ذلك الوقت الدرس والفتوى والاملاء وأنه كان قد سمع أباه وعمه الفضل وحمزة بن يوسف السهمي وغيرهم توفي سنة سبع وسبعين وأربعمائه . ونظن أنه هو الذي درس الغزالي عليه .

ثم ان الغزالي لم يقبع بعد ذلك في بلدة بل قدم نيسابور قاعدة خراسان طلباً للعلم فلازم رئيس الأشاعرة امام الحرمين عبد الملك الجويني وجد واجتهد حتى برع في مختلف العلوم النقلية كما برع في العلوم العقلية ولا سيما المنطق

والجدل والفلسفة وأحكم كل ذلك وفهم كلام أرباب هذه العلوم العقلية وتصدى  
للرد على مبطلاتهم وابطال دعاويهم . وكان أستاذه امام الحرمين يعجب به  
فيقول : الغزالي بحر مغدق . ويقول أيضاً : الحدسيات للغزالي . بل كان  
يفتخر به في الظاهر ويغار منه في الباطن . ولما مات أستاذه امام الحرمين عام ٤٧٨  
خرج الغزالي وهو في سن الثامنة والعشرين الى المعسكر وهو ميدان واسع بجوار  
نيسابور أقام فيه الوزير السلجوقي نظام الملك معسكره . وهذا الوزير هو ما هو  
في العلم وحب نشره والولع بالبحث واکرام العلماء . وكان مجلسه مجمع  
أهل العلم وملازمهم ، فناظر أبو حامد الأئمة العلماء في مجلسه وقهر الخصوم  
وظهر كلامه عليهم واعترفوا بفضله وتلقاه صاحب أي الوزير بالتعظيم  
والتبجيل وولاه التدريس في مدرسته ببغداد وطلب اليه التوجه اليها فقدم  
بغداد سنة أربع وثمانين وأربعمائة وهو في الرابعة والثلاثين ودرس بالنظامية .  
وذكره مترجموه أنه قد « أعجب الخلق حسن كلامه وكمال فضله وفصاحة لسانه  
ونكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة وأحبّوه وأقام على تدريس العلم ونشره بالتعليم  
والفتيا والتصنيف مدة عظيم الجاه زائد الحشمة عالي الرتبة ، مسموع الكلمة  
مشهور الاسم تضرب به الأمثال وتشداليه الرجال » حسب ما جاء في طبقات  
الشافعية .

وجاء أيضاً في كلام خطيب نيسابور عبد الغافر الفارسي وكان معاصراً  
لـلغزالي قوله فيه وقد نقله السبكي : « وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى  
كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة » . وهذا تنويه بمكانة العلم  
واحترام العلماء وبالمجد الذي تبوأه أبو حامد اذ ذاك .

أجل لقد بلغ الغزالي في نحو أربع سنوات بقلمه وبلاغته وذكائه قمة الشهرة  
والسؤدد العلميين . وكأنه شعر بفراغ ذلك كله وخوائه فأراد أن يقلب الأمر  
فيطرح ما نال من الدرجة الرفيعة ويسلك سبيل التزهّد والتصوف لعله  
يمسك بكنه الوجود الحق من الباطن بعد أن أمسك بمظاهره الشكلية المغرية .  
خامرته عندئذ أزمة نفسية بدأت في رجب سنة ٤٨٨ واستمرت حتى ذي القعدة من  
السنة ذاتها أي نحو ستة أشهر تتنازع فيها شهوات الجاه والمال في بغداد عاصمة  
الدنيا اذ ذاك والرغبة في الهرب من الشواغل والعلائق حتى أفضى هذا

التنازع به الى السقم واعتقال اللسان وخمود قوى الجسم وهو يصف ترده  
ببيانه البليغ فيقول قول من يحاسب نفسه أشد المحاسبة :

« ثم لاحظت أحوالي فاذا أنا منغمس في العلائق وقد أهدت بي من الجوانب،  
ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير  
مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا هي غير  
خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت  
أنني على شفا جرف هار وأنني قد أشفيت على النار ان لم أشتغل بتلافي الأحوال •  
فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج  
من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه  
أخرى • لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة الا وتحمل عليها جند الشهوة  
حملة فتفتّر لها عشية • فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام ،  
ومنادي الايمان ينادي : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر الا قليل ، وبين يديك  
السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل ! فان لم  
تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ وان لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟  
فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار •

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة • اياك أن تطاوعها فانها سريعة  
الزوال فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي من  
التكدير والتنغيص ، والأمن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ربما التفتت اليه  
نفسك ولا يتيسر لك المعاودة • »

ويقال في أزمته النفسية التي حولته الى الزهد أنه كان ذات يوم يعظ الناس  
فدخل عليه أخوه أحمد وأنشده :

أخذت بأعضادهم اذ ونوا	وخلفك الجهد اذا أسرعوا
وأصبحت تهدي ولا تهدي	وتسمع وعظاً ولا تسمع
فيا حجر الشحذ حتى متى	تسنّ الحديد ولا تقطع

فتأثر بذلك وزلزل زلزالاً شديداً حتى ترك علائق الدنيا •

أجل بعد ذلك التردد الطويل المضني غلب عليه الاعراض عن الجاه والمال والأولاد ورمى كل ذلك وراء ظهره . ومهما تمحل بعض الباحثين في التماس أسباب هذا العزم فلا شك أن جوهره ابتغاء نوع من المعرفة لا يتم الا بالسلوك اذ كان يقول : « التعطش الى درك حقائق الأمور دأبي وديدي من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي » .

وكان قد طالع كتب الصوفية مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم وعلم أن أخص خواصهم لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ومجرد النظر بل بالذوق والحال والسلوك وتبدل الصفات . وكم من الفرق بين أن يعلم المرء حد الصحة وحد الشبع وأن يكون صحيحاً وشبعان على حد تعبيره :

### لا يعرف الوجد الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيتها

وهكذا فارق بغداد في سن الثامنة والثلاثين بعد أن فرق ما كان معه من المال ولم يدخر الا قدر الكفاف وقوت الأطفال ثم دخل الشام وأقام بدمشق قريباً من سنتين اشتغالا بالمجاهدة والرياضة وتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب وكان اعتكافه في المسجد الأموي ولا سيما في زاوية من المسجد نسبت اليه وفي المنارة الغربية كان في وسطها غرفة واسعة وقد خربت هذه المنارة وأزيلت . ثم رحل الى بيت المقدس وأقام فيها مدة يدخل فيها كل يوم الصخرة ويفلق بابها على نفسه . وفي بيت المقدس بدأ يؤلف كتابه الشهير « احياء علوم الدين » الذي عاوده في دمشق لما رجع اليها بعد حين ثم رحل الغزالي الى مدينة الخليل لزيارة مقام ابراهيم ثم تحركت فيه داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة . ويقال انه بعد ذلك ذهب الى مصر والاسكندرية قولا غير متأكد ثم رجع على طريق دمشق الى بغداد وعقد بها مجانس للوعظ وتكلم على لسان أهل الحقيقة وحدث بكتاب الاحياء كما يذكر السبكي ثم يقصد الى بلده طوس . ويقول في دواعي اياه :

« ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال الى الوطن فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق



عن الرجوع اليه فأثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر . وكانت حوادث الزمن ومهمات العيال وضرورات المعاش تغبّر في وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو الحال الا في أوقات متفرقة . لكنني مع ذلك لا أقطع طمعي منها فتدفعني عنها العوائق وأعود اليها . . . ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها . »

يروى عن أحوال الغزالي في تطوافه وخلواته حكايا غريبة منها أنه صادف دخوله يوماً المدرسة الأمينية بدمشق فوجد المدرّس يقول : قال الغزالي وهو يدرس من كلامه . فخشي الغزالي على نفسه العجب ففارق دمشق وأخذ يجول في البلاد . هذه طرفة تنم على مدى التواضع ومخالفة هوى النفس قد يستفيد منها المغرورون المتبجحون بأنفسهم . ومنها ما جاء في « شذرات الذهب » من أن القاضي أبا بكر بن العربي قال : رأيت الامام الغزالي في البرية ويديه عكازة وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة ( اناء من جلد للماء ) . وقد كنت رأيته ببغداد يحضر مجلس درسه نحو أربعمئة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم . قال : فدنوت منه وسلمت عليه وقلت له : يا امام ! أليس تدريس العلم ببغداد خيراً من هذا ؟ قال : فنظر اليّ شزراً وقال : لما طلع بدر السعادة في سماء الارادة وجنحت شمس الوصول في مغارب الأصول .

تركت هوى ليلي وسعدى بمعزل	وعدت الى تصحيح اول منزل
ونادت بي الأشواق مهلاً فهذه	منازل من تهوى رويدك فانزل
غزلت لهم غزلاً دقيقاً فلم أجد	لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي

ويروي أبو منصور الرزّاز وقد تفقه على الغزالي ودرس بالنظامية أيضاً أنه رأى الغزالي في بغداد قبل أن يتصوف ويتزهد فقوموا ملبوسه ومركوبه بخمسائة دينار ورآه ببغداد بعد تصوفه وزهده فقوموا ملبوسه بخمسة عشر قيراطاً . والقيراط جزء من عشرين جزءاً من الدينار أي تساوي ثلاثة أرباع الدينار .

هذا ولما عاد الى وطنه طوس وأقبل على التصنيف ونشر العلم مع الاعتزال والخلوة حضر اليه فخر الملك بن نظام الملك الذي كان وزيراً في نيسابور لسنجر حاكم خراسان وألح عليه في الذهاب الى نيسابور فذهب ودرّس في نظاميتها وكان يرجو أن يكون المقصود بعد أن كتب احياه في أحد من جاء خبرهم في الحديث الشريف : « ان الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها » . والغالب على الظن أنه ظل يدرس حتى مقتل فخر الملك في العاشر من المحرم سنة خمس مائة كما قتل أبوه نظام الملك من قبله في سنة ٤٨٥ .

هذا وان رجوعه الى التعليم في نيسابور كان في حال غير الحال الأولى التي كان عليها في بغداد فهو يقول : « وأنا أعلم أنني وان رجعت الى نشر العلم فما رجعت . فان الرجوع عود الى ما كان . وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه وأدعو اليه بقولي وعملي وكان ذلك قصدي ونيتي . وأما الآن فادعو الى العلم الذي به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه . هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي . يعلم الله ذلك مني وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري . ولست أدري أصل الى مرادي أم أخترم دون غرضي . ولكني أومن ايمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وأني لم أتحرّك لكنه حركني وأني لم أعمل لكنه استعملني . فأسأله أن يصلحني أولاً ثم يصلح بي ويهديني ثم يهدي بي غيري وأن يريني الحق حقاً ويرزقني اتباعه ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه . »

نقل السبكي عن أبي الفرج بن الجوزي في كتاب « الثبات عند الممات ما قاله أحمد أخو الامام الغزالي : « لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد وصلى وقال : عليّ بالكفن . فأخذه وقبّله ووضع على عينيه وقال : سمعاً وطاعة لله للدخول على الملك . ثم مدرجليه واستقبل القبلة ومات قبل الاسفار . » . ويروى أن آخر لفظ فاه الامام به كما يروي ابن كثير لما سأله بعض أصحابه وهو في السياق أن يوصيه قوله : « عليك بالاخلاص ولم يزل يكررها حتى مات . »

ولا تعارض بين الروايتين بل نذهب الى الجمع بينهما فقد كان المسلمون يذكرون في صلاة الصبح . وقد يزور الخل اذ ذاك خليلاً له اذا علم أنه مريض .

عاصر أبو حامد ثلاثة من الخلفاء العباسيين . وهم القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧) وحفيده المقتدي بأمر الله (٤٨٧ - ) والمستظهر بالله (٥١٢ - ) . وكان ذلك العهد على علو شأنه في الحضارة والعلوم عصر اضطراب فكري وسياسي شديد . فقد جنحت الخلافة العباسية الى الضعف . وغدا الخلفاء كالدُمى بأيدي الأمراء والسلاطين ولم يبق لهم الا الاسم والأبهة والبركة . انقضت في عهد الخليفة القائم دولة بني بويه وقامت دولة السلاجقة التركية حين دخل بغداد طغرلبيك سنة ٤٤٧ أي قبل ولادة الغزالي بثلاث سنوات ونصّب سلطاناً . ومع ذلك الاضطراب كان عهد هذه الدولة عهد نمونسي في القوة وفي تقدم العلم . مات طغرلبيك عام ٤٦٧ وخلفه عضد الدولة ألب أرسلان فاستعان هذا بوزيره العظيم نظام الملك الطوسي . وكان هذا محباً للعلم كما سلف معدوداً في العلماء . أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية في سائر الأمصار وأجرى لها الجرايات العظيمة وكان أولها نظامية بغداد تم بناؤها عام ٤٥٨ . كان سلفه الوزير عميد الملك الكندري الحنفي قد حسّن للسلطان طغرلبيك لعن المبتدعة على المنابر فأمر بذلك فأضاف اليهم الوزير الأشعرية الشافعية واستعان بطائفة من المعتزلة الذين يقلدون مذهب أبي حنيفة فحصلت فتنة وفارق كثير من العلماء بلادهم مثل امام الحرمين الجويني وأبي القاسم القشيري صاحب الرسالة المشهورة . وكذلك كانت الفتنة تنشب بين بقية المذاهب والاتجاهات . فلما ولي نظام الملك أزال ذلك جميعه وأعاد العلماء الى أوطانهم ودعم الأشاعرة وجعل التدريس في النظاميات على المذهب الأشعري . وقد سلف ما ذكرناه من تسميته الغزالي مواطنه المبرز مدرساً في نظامية بغداد . وقد استمر نظام الملك وزيراً للسلطان أبي الفتح ملكشاه الذي خلف أباه ألب أرسلان وكان سلطاناً للسلاجقة قوياً ومصلاً وفي عهده اغتيل نظام الملك .

ولما توفي الخليفة المقتدي عام ٤٨٧ وبويع ولده المستظهر شهد الغزالي بيعته في بغداد وكان في أوج مجده العلمي . ثم تقدم اليه الخليفة الجديد الشاب بتأليف كتاب يرد فيه على دعاة الفاطميين وأتباع الحسن بن الصباح ويدعم خلافته دعماً فكرياً دينياً . وقد أشار مؤلف المستظهري في كتابه هذا الى الفتنة والقلق لعهد عند بيان صحة امامة الخليفة والتنويه بمزاياه وكفايته بقوله : « وعالج

معضلات الزمان بحسن رأيه لما استأثر الله بروح المقتدي وأمتع كافة الخلق بالامامة الزاهرة المستظهرية وقد وافق وفاته احداق العساكر بمدينة السلام وازدحام أصناف الجند على حافاتها، والزمان زمان الفترة والدنيا طافحة بالمحن ، متموجة بالفتن ، والسيوف مسلولة في أقطار الأرض ، والاضطراب عام في سائر البلاد لا يسكن فيها أوار الحرب ولا تنفك عن الطعن والضرب ، وامتدت أطماع الجند الى الذخائر ففغروا أفواههم نحو الخزائن وكان يتداعى الى تغيير الضمائر وثور الأحقاد والضغائن . »

ولما توفي ملكشاه نشبت حروب بين ولديه بركياروق ومحمد كانت فاتحة شر على الأخوين وعلى البيت السلجوقي وعلى البلاد عامة اذ ظلت نيرانها مستعرة خمس سنين من عام ٤٩٢ الى عام ٤٩٧ .

وكما كان اختلاف آل سلجوق وتفرق كلمتهم سبباً لنكبتهم بالدعاة الفاطميين وأتباع الحسن بن الصباح كذلك نكبوا كما نكبت البلاد العربية جمعاء بالحروب الصليبية اذ بدأت في سنة ٤٩٠ حين كان الغزالي يناهز الأربعين وهو في طور العزلة والتجريد . ومن المعلوم أنها استمرت قرنين الى عام ٦٩٠ اصطلى بنارها الدولة الفاطمية بمصر ودولة السلاجقة ودول الأتابكة التي تفرعت عن السلاجقة والدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية .

★ ★ ★

ان كتب الغزالي الكثيرة عالجت موضوعات شتى جعلت جوانب شخصيته متعددة حافلة بالعناصر الفكرية غنية بالشؤون الكلامية والفلسفية والفقهية والنفسية والاجتماعية والصوفية . فهي مناجم آراء وكنوز بحور . ونحن في هذه العجالة العامة لا بد لنا من أن نلم ببعض تلك الشؤون والعناصر التي شهر بها أبو حامد ولا سيما فيما عرضه من الآراء الفريدة في كتبه المنقذ من الضلال وتهافت الفلاسفة والمستصفي والاحياء .

مما شهر به مؤلف المنقذ تناوله لنظرية المعرفة وقضية الشك والبحث عن اليقين وطريق الوصول اليه . ذلك أن المطلوب عنده كما يقول هو « العلم

بحقائق الأمور فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟ فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث لك شكاً وانكاراً . » . ولما أعلن المؤلف هذا المعيار في التماس اليقين راح يبحث في أنواع علومه بالتدريج فابتدأ بالمعارف الجلية وهي الحسيات والضروريات فانتهى به طول التشكيك الى رفض التسليم بالحسيات ما دامت الحواس تقارف الوهم والخطأ كرؤية الظل واقفاً وهو متحرك ورؤية الكوكب صغيراً والأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار . ولما بطلت الثقة بالمحسوسات التمسها في العقلية التي هي من الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً . أي اعتمد الأوليتين الكل أكبر من الجزء ومبدأ عدم التناقض . ولكنه لا يلبث أن تناديه المحسوسات : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقلية كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بي فجاء حاكم العقل فكذبني ؟ ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي . فلعل وراء ادراك العقل حاكماً آخر اذا تجلى كذب العقل في حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه . وعدم تجلي ذلك الادراك لا يدل على استحالته .

وعلى هذا يفقد العقل ثقته بنفسه أيضاً . ويبحث مؤلف المنقذ عن علاج يخرج من هذا التشكيك فلا يجده الا في نور يقذفه الله في الصدر وهو مفتاح أكثر المعارف . فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف . وذلك النور ينبجس من الجود الالهي في بعض الأحيان ويجب الترصد له . وعندئذ « رجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين » . وهكذا يعيد الغزالي الى الضروريات العقلية رسوخها المتين بمدد من الجود الالهي بعد أن زلزل قواعدها . ونحن نجده في هذا أسلم من غيره من الفلاسفة الذين اعتمدوا الشك في فلسفتهم أو نقدوا مبادئ العقل النظري وربما كانوا قد تأثروا من قريب أو بعيد بأرائه التي نقلت الى اللاتينية .

ويتعلق بنظرية المعرفة فكرة السبب أو العلة وهي فكرة مفهومة لدى الناس

جميعاً سواء فيها العامي والعالم • ولكن متى دُفقت تبين الغموض والابهام في جوانبها • ولقد كانت موضوعاً عالجته الفلاسفة والمفكرون منذ قديم الزمان حتى الوقت الحاضر • والغالب على علماء العصر الحديث اعتبار السبب هو المتقدم الدائم للاشراطي الذي اذا وجد ترتب على وجوده تال متأخر هو المسبب أو المعلول.

ويرى الغزالي في تهافت الفلاسفة أن الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وبين ما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ولا اثبات أحدهما متضمناً لاثبات الآخر ولا نفيه متضمناً لنفي الآخر فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر مثل الري والشرب والشبع والأكل والاحتراق ولقاء النار والنور وطلوع الشمس والموت وجز الرقبة والشفاء وشرب الدواء وهلم جراً الى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف ، كما يذكر أبو حامد •

وكلامه واضح في أن الاقتران ليس ضرورياً بل هو وجود علاقة زمنية ما بينهما وهي علاقة لا تكفي لاثبات عليّة الحدث المتقدم للحدث المتأخر بالضرورة • ومثل هذا الزعم قد يثير عقولا كثيرة تعودت الاستناد في تحليلها الى مبدأ السببية في نظرية المعرفة كما أثارت ابن رشد من قبل • ولكننا نقول ان العلماء اذا كان لديهم تصور ما لفكرة السبب مثلاً ثم عرضت لهم حادثة نادرة تخرج في شرحها عن تصورهم عمدوا الى توسعة التصور ليتسنى لهم استيعاب تلك الحادثة النادرة • ومن المعلوم في الوقت الحاضر أن السببية قد رجعت الى ما يدعى التابعة أو الدالية في الرياضيات بمعنى أنها نوع من الارتباط قد يتقدم الحدث المتأخر على المتقدم فيغدو سبباً وقد يتأخر المتقدم عن المتأخر فيغدو مسبباً • بل ان الأمر تجاوز هذا التصور في الفيزياء الحديثة فقد كانت الفيزياء الاتباعية تفيد فكرة السببية في أن ما يجري في مكان ما وفي لحظة مفروضة انما يتعلق بما جرى في المكان المصاحب له تماماً وفي اللحظة المتقدمة على اللحظة الأولى فوراً • وهذا التعلق عندها لا لبس فيه ولا مرية وكانت تفيد ذلك بمعادلات رياضية ذات مشتقات جزئية هي ما يدعى بمعادلات الحقل ويتضمن ذلك وصفاً متصلاً بلا ثغرات • ولكن الفيزياء الحديثة قوضت هذا التصور تقويضاً يجعلنا نقرب فيه من تصور الغزالي للسببية بصرف النظر عن الاعتبار الديني •

ثم ان المستصفي من أهم كتب علم الأصول عند الشافعية . ومقدمته مهمة لافي علم الأصول وحده بل في أصول العلوم كلها فهو يبحث في مدارك العقول وانحصارها في الحد التابع للتصور وفي البرهان التابع للتصديق وفي شرط الحد الحقيقي وشرط البرهان الحقيقي أي انه يبحث في المنطق والمناظرة وآداب البحث والخلل الذي يعترى التصور والخلل الذي يعترى التصديق ويبين سبل امتحان الحدود ويفحص سلامة الأقيسة المنطقية . وحذا لو تدرّس هذه المقدمة في برامج مناهج البحث بكلّيات الجامعة لأنها تصل الحاضر بالماضي وتساعد على التحري لأصول الاستنباط الصحيح . والمؤلف يقول في مستهلها واثقاً بنفسه : « وليست هذه المقدمة من جملة الأصول ولا من مقدماته الخاصة بل هي مقدمة العلوم كلها . ومن لا يحط بها فلا ثقة له بعلومه أصلاً . » وثمة في تاريخ الفكر العربي الاسلامي شؤون كان يشير طرح بعضها مناقشات وجدلاً طويلاً . وقد نظم مؤلف المستصفي كتابه في أربعة أبواب دعاها الأقطاب واستهل القطب الأول بالكلام في حسن الأشياء وقبحها . وقد يطول تلخيص كلامه في هذا الشأن المهم . لذلك نعرضه في شكل موجز متعارف عند علماء الأصول وهو أن الحسن والقبح يطلق عندهم على ثلاثة معان الأول كون الشيء ملائماً للطبع أو منافراً له كالفرح والغم ، والثاني كون الشيء صفة كمال أو صفة نقصان كالعلم والجهل ، والثالث كون الشيء متعلق المدح والذم في العاجل ومتعلق الثواب والعقاب في الآجل كالعبادات والمعاصي . ولا خلاف بينهم انهما بالتفسيرين الأولين عقليان . وأما بالتفسير الثالث فقد اختلف فيه فعند الأشعري حسن الأفعال شرعي ولاحظ للعقل فيه وانما يعرف بالأمر وعند المعتزلة الحاكم بالحسن والقبح هو العقل . ويناقد الغزالي رأي المعتزلة ليبطل دعواهم في كون الحسن والقبح وصفاً ذاتياً للأشياء بدل أن يكون اضافياً . ويقرر أن مثار الغلط في ثلاث نقاط يخطيء الوهم فيها : الأولى أن الانسان يطلق اسم القبح على ما يخالف غرضه وان كان يوافق غرض غيره من حيث انه لا يلتفت الى الغير . ثم انه قد يستحسن في بعض الأحوال عين ما يستقبحه اذا اختلف غرضه . الثانية ان الحكم قد يخالف الغرض في جميع الأحوال ما عدا حالة واحدة نادرة ولا يلتفت الوهم الى تلك الحالة النادرة فيغفل عنها فيقضي بالحكم مطلقاً لاستيلاء أحوال قبحه على قلبه وذهاب الحال النادرة عن ذكره . الثالثة ما يدعوه «سبق الوهم الى العكس، فان ما يراه مقروناً بالشيء يظن أن

الشيء أيضاً مقرون به مطلقاً ولا يدري أن الأخص أبدأ مقرون بالأعم ، والأعم لا يلزم أن يكون مقروناً بالأخص . ومثاله نفرة السليم وهو الذي نهشته الحية عن الجبل المبرقش اللون لأنه وجد الأذى مقروناً بهذه الصورة فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى » ذلك « أنه لما رأى الأذى مقروناً بصورة الجبل وطبعه ينفر عن الأذى فنفر عن المقرون بالأذى . فالمقرون باللذيد لذيد والمقرون بالمكروه مكروه . بل الانسان اذا جالس من عشقه في مكان فاذا انتهى اليه أحس في نفسه تفرقة بين ذلك المكان وغيره . ولذلك قال الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلي      أقبل ذا الجدار وذا الجدارا  
وما تلك الديار شغفن قلبي      ولكن حب من سكن الديارا

وقال ابن الرومي منبهاً على سبب حب الأوطان :

وحب أوطان الرجال اليهم      مآرب قضاهم الشباب هنالك  
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم      عهد الصبا فيها فعنوا لذلك

وشواهد ذلك مما يكثر . وكل ذلك من حكم الوهم . » وينتهي مؤلف المستصفى الى أن الأشياء ليس لها حسن ذاتي ولا قبح ذاتي وانما حسنها وقبحها اضافيان بحسب الأحوال .

وقد عمدنا الى ذكر غلطات الوهم الثلاث هذه لنبين أن الغلطة الثالثة غدا لها شأن في العلم الحديث وهي قضية «المنعكس الشرطي» . ومعناه أن منبهاً ما يستدعي أثراً فزيولوجياً أو نفسياً يقرن به منبه آخر يختلف عنه ولكن اقترانه به يفضي بعد أمد الى الأثر النفسي أو الفزيولوجي ذاته اذا أبعد المنبه الأصلي . وقد نوّه بهذا المنعكس العالم الفزيولوجي الروسي بافلوف عام ١٩٠٤ عند الحيوان أولاً ثم عند الانسان ثانياً . وأثرت هذه البحوث الجديدة التي سبق الغزالي الى فكرتها في علم النفس السلوكي وعلم النفس المرضي وعلم الأعصاب الفزيولوجية وبحوث اللغة . بل ان هذه البحوث المتعلقة بالمنعكس أطلق عليها اسم « علم المنعكسات Reflexology » وكان السابق اليها أبو حامد قبل ما يزيد على تسعمائة سنة . وقد انتبه السيدفائز الحاج الى ما جاء في كلام الشيخ



محمد أبي زهرة حول الغلطة الثالثة للوهم في الاحتفال بالذكرى المئوية التاسعة في التقويم الميلادي لميلاد الغزالي الذي قام به المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ابان الوحدة بدمشق في آذار ١٩٦١ فجعل نظرية سبق الوهم الى العكس موضوع رسالة الدكتوراة له في جامعة القديس يوسف ببيروت عام ١٩٧١ .

والغزالي فقيه شافعي الى جانب فلسفته وعلمه بالأصول . وكتبه تزخر بمسائل الفقه مضموماً اليها عطر روجيه صوفي . كتب في الفقه عدة كتب منها البسيط ومنها الوسيط ومنها الوجيز ومنها الخلاصة . وقد أشار الى هذه الكتب أبو حفص الطرابلسي في قوله :

هذب المذهب جبر أحسن الله خلاصه  
ببسيط ووسيط ووجيز وخلاصه

ولكن كتابه الفقهي الصوفي الأخلاقي الاجتماعي الواسع هو احياء علوم الدين . وقد عالج فيه مختلف الشؤون الفقهية وغيرها . ولا يمكن بوجه من الوجوه تحليل هذه الموسوعة الا بافرادها . وقدمس فيها أموراً لا تزال موضع البحث في العصر الحاضر وهي قضية ضبط النسل وتنظيم الأسرة التي تدخل في البحوث الديمغرافية . ولا بد لنا من الامام برأيه في هذا الشأن . يشير أول الأمر الى اختلاف العلماء في اباحته وكراهته فمن مبيح له مطلقاً بكل حال ومن محرم بكل حال ومن قائل يحل برضا الزوجة ولا يحل برضاها . والصحيح في رأي الغزالي أنه مباح ، واباحته تتم في بعض الأحوال كالخوف من « كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة الى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء وهذا غير منهي عنه فان قلة الحرج معين على الدين . » وتلك الاباحة محفوفة بترك الأولى والفضيلة لأن الفضيلة في مجيء الولد . ومع ذلك فان كلام الغزالي محمول على السلوك الشخصي وعلى رضا الزوجين لا على النظر الى التشريع العام فان الدين الاسلامي يحث على الزواج والنسل .

وليست قضية تنظيم الأسرة الا جزءاً من آداب الزواج التي عالجها معالجة واسعة وافية . وقد يخالط معالجته بعض النكات والارشادات اللطيفة التي أدت

الى نجاحه في تدريسه وفي تأليفه وتدل تلك الاشارات والنكات على ثقافته العربية المستفيضة فقد ذكر من عادات النساء العربية أنهن عند التزويج «يعلمن بناتهن اختبار الأزواج وكانت المرأة تقول لابنتها : اختبري زوجك قبل الاقدام والجرأة عليه . انزعجي زج رمحه فان سكت فقطعي اللحم على ترسه فان سكت فكسري العظام بسيفه فان سكت فاجعلي الاكاف على ظهره وامططيه فانما هو حمارك . »

ولكنه يورد أيضاً وصية الأب لابنته يورد وصية أسماء بن خارجة الفزاري لابنته وهي مشهورة يحسن أن تكون دستوراً لكل زوجة : « انك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت الى فراش لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فكوني له أرضاً يكن لك سماء وكوني له مهاداً يكن لك عماداً وكوني له أمة يكن لك عبداً . لا تلحفي به فيقلاك ولا تباعدي عنه فينساك ان دنا فاقربي منه وان نأى فابعدي عنه واحفظي أنفه وسمعه وعينه فلا يشمن منك الا طيباً ولا يسمع الا حسناً ولا ينظر الا جميلاً . » وهكذا يتبدى الفرق الكبير بين مواقف الحموات والأحماء : أمهات الزوجات وآبائهن . .

وقد عالج أبو حامد في فتاويه الكثيرة بعض القضايا الاجتماعية السلبية التي كانت وما تزال في بعض المجتمعات تنخر كالداء في جسم الأمة . ومنها قضية الرشوة والهدية؛ فقد يختلط الأمر فيهما ويكون الشيء في الظاهر هدية ويقصد منه التقرب وقضاء المآرب . ذلك أن الرشوة اما صريحة وهي من السحت المحرم وهي من أسباب فساد الحكم واما خفية تلبس ثوب الهدية . وعلى ذلك يُنظر عند الاشتباه فان كان المراد السعي في انجاز حرام أو ظلم انسان حرمت وان كان المراد السعي في دفع ظلم حرمت أيضاً لأن القضاء مفروض فيه أن يكون عادلاً . أما اذا كان السعي مباحاً لا واجباً ولا حراماً وفيه تعب بحيث لو عرف لجاز الاستئجار عليه فما يأخذه حلال . . . كما يأخذه الوكيل بالخصومة بين يدي القاضي فليس بحرام اذا كان لا يسعى في حرام . وان كان محصوله يقع بكلمة لا تعب فيها ولكن تلك الكلمة من ذي الجاه أو تلك الفعل من ذي الجاه تفيد . . . فهذا حرام لأنه عوض من الجاه ، ولم يثبت في الشرع جواز ذلك بل ثبت ما يدل على

النهى . . . ويقرب من هذا أخذ الطبيب المعوض على كلمة ينبه بها على دواء  
ينفرد بمعرفته .

والشيء بالشيء يذكر وهو البحث في أجرة الطبيب الذي يصف العلاج أو  
يذكر الدواء أيأخذ على ذلك أجرة أم لا يأخذ . وهو ما قد عالجه الشيخ محمد أبو  
زهرة في بحثه « مصدر المعرفة عند الامام الغزالي » في مهرجان الامام فيرى  
الشيخ أنه لا يصح أخذ أجرة على ذلك . « ولا يعني ذلك أن يضيع علم الطبيب  
ولا يكون له مكافأة على عمله وخبرته ولكن معنى ذلك أن تجري عليه الدولة  
رزقاً معلوماً يليق بمثله وكيفية وأهله بالمعروف على هذا الأساس لأنه يقوم  
بفرض كفائي وهو ازالة أسقام الناس فيكون كالقاضي والعالم وغيرهما ممن  
يقوم بفروض كفائية . »

ويرى الشيخ أيضاً أن الدولة « كما نظمت القضاء والافتاء والري عليها أن  
تنظم الطب وتفرض أجوراً مجزية للأطباء لينتفع بفنهم الغني والفقير على  
السواء وخصوصاً أن الدولة أنفقت على الطبيب ألوف الأموال حتى أخرجه  
طبيباً . وما أنفقت الا من مال الأمة فكان حقاً أن تفرض عليه جزاء ما أنفقت وأن  
تتولى توزيع ما أنتجت على السواء . »

★ ★ ★

ما أشبه الباحث الذي يلخص كتاباً أو مسألة بالكيماوي العطار الذي يجمع  
في انبيقه طائفة من الأزهار ويضيف اليهاماء أو غولا أو ما شابه ذلك ليحل عطورها  
ويستخلص خلاصاتها فيقطرها تقطيراً مجزئاً كما يفعل الكيماوي . ولكن  
أصناف الأزاهير في كتب الغزالي كثيرة جداً فلا يستطيع الباحث المقطر أن يحلل  
ويستخلص تلك العطور الفاغمة في وقت قصير مسمى ولذلك لا بد له من الإيجاز  
ومن اغفال أزاهير كثيرة في حقول تلك الكتب والرسائل الغزيرة الواسعة  
المتفاوتة . ويعز علينا أن نطوي صفحاً عما اشتهر به أبو حامد وهو نزعتة  
الصوفية وترويجة للتصوف . ولكن التصوف عبق الحضارة . ولا شك أن  
أهميته تزداد عند تقدم الأمة واستكمال مآربها الاقتصادية والقومية والدفاعية .  
ويكون من ضياع الوقت وتقليل الفائدة تناول هذه الأمور في حديث موقوت  
يتعرض لأمور أكثر فائدة وأهم شأنًا . حسبنا اذن ما لخصناه من حياة هذا

الكوكب المتألق وعصره وطائفة من أفكاره • ولكن يحسن بنا أن نذكر وفاء  
واخلاصاً للفكر حسب نصيحة الغزالي نفسه ما أخذ على حجة الاسلام قديماً وما يمكن  
أن نناقشه فيه •

★ ★ ★

جاء في « طبقات الشافعية » في سياق كلام عبد الغافر الفارسي معاصره :  
« ومما كان يعترض به عليه وقوع خلل من جهة النحو يقع في أثناء كلامه •  
وروجع فيه فأنصف من نفسه واعترف بأنه ما مارس ذلك الفن واكتفى بما كان  
يحتاج اليه في كلامه مع أنه كان يؤلف الخطب ويشرح الكتب بالعبارات التي  
يعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها ، وأذن للذين يطالعون كتبه فيعشرون على خلل  
فيها من جهة اللفظ أن يصلحوه ويعذروه فما كان قصده الا المعاني وتحقيقها دون  
الألفاظ وتلفيقها » • ونحن نقول ان العرب القدماء كانوا جدد حراس على  
سلامة لغتهم طامحين نحو أداء المعاني مهمادقت أو جلّت في تلك السلامة ، ينتقدون  
كل خلل وان كان تافهاً عند الكاتب ولو كان على حظ كبير من البلاغة وحسن  
الأداء على خلاف ما نجده اليوم من تفشي اللحن والخطأ والركاكة في المعاني  
والمباني •

وقد عيب على الغزالي الترخص في النقل والرواية والأحاديث عن النبي ﷺ  
والآثار عن الصحابة والتابعين ومتقدمي السلف فقد يتفق له في ايراده مخالفة  
الألفاظ والتقديم والتأخير والزيادة والنقص مع موافقة المعنى وتطابقه كما  
يتفق له أن يورد من الأحاديث التي لا تصح قدراً غير قليل • وقد جرّحه في ذلك أهل  
الحديث وأئمة الحنابلة حتى ان ابن الجوزي قال فيه : « انما نقل نقل حاطب » •

وجاء في ترجمة محمد بن محمد بن عليّ الخزيمي في « طبقات الشافعية »  
قول ابن الجوزي في الخزيمي هذا : « لكنه كان روى الكثير من الموضوعات • قال  
وكذلك مجالس الغزالي وابن العبادي فيها العجائب والمعاني التي لا توافق  
الشرعية • » ويضيف السبكي : « وليس الأمر مسلماً لابن الجوزي فلم نر في  
كلام أحد منهم ما يخالف الشرع • وأما رواية الحديث الموضوع فقد يقع في  
كلامهم ، وما ذلك الا لعدم معرفتهم بكونه موضوعاً فلا يعاب عليهم والحالة هذه •  
وليس ابن الجوزي عندنا بحيث يتكلم في مثل هؤلاء • »

ولا شك أن الجرح والتعديل في تاريخ الحضارة العربية كانا دافعين للعلماء على التحري والتثبت ولكنهما كانا أفتين في طعن العلماء بعضهم في بعض .

هذا ومن ترخص الغزالي في نقل الأخبار عن السلف ما ذكره في آخر المستظهري في سياق مواظب الخلفاء من أن سليمان بن عبد الملك أرسل إلى أبي حازم : تبعث إلي بذلك الذي تفرط عليه بالعشاء . فأنفذ إليه شيئاً من النخالة المقلية فصام ثلاثة أيام ما ذاق شيئاً ثم أفطر في اليوم الثالث بتلك النخالة وقارب زوجته تلك الليلة فولد له عبد العزيز بن سليمان ومن عبد العزيز عمر فهو واحد زمانه . هكذا ذكر الغزالي ونبه على سهوه ابن الجوزي فإن عمر هو ابن عبد العزيز بن مروان وليس ابن عبد العزيز بن سليمان . أما سليمان فهو ابن عبد الملك بن مروان فهو ابن عم عمر لا ابن أخيه وهو الذي ولاه، ولا شك أن هذا من التعجل وسهو الذاكرة .

والغريب أن الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي نشر كتاب المستظهري وحققه لم يتنبه إلى هذا السهو الذي نبه عليه ابن الجوزي .

وعندنا أنه في ذلك الأمر متأثر بالصوفية أساتذته أمثال الحارث بن أسد المحاسبي وأبي طالب المكي إذ كانوا على متون الأحاديث أكثر اعتماداً منهم على أسانيدها وذلك ابتغاء الوعظ والتأثير في العامة وهو ما لا يرضي أرباب الحديث . وقد رأينا أنه كان يكتب في أسفاره بعض أسفاره ورسائله فربما أعوزته المراجع للتحقيق فاعتمد الذاكرة . ونحن الذين عالجوا الكتب الأجنبية الحديثة المعتمدة على التماس المراجع والتقييد مع فائدتهما نجدها ليست أقل سهواً وخطأً من تلك الكتب القديمة التي كانت أكثر اعتماداً على الرواية . هذا وقد خرج الأحاديث الواردة في الأحياء كلها أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي المتوفى عام ٨٠٦ .

ولما انتقد أبو حامد الفلاسفة المتأثرين بالفلسفة اليونانية في كتابه « تهافت الفلاسفة » لم يرض فيلسوفاً كبيراً أعجب بفلسفة أرسطو كل الإعجاب وهو القاضي الطيب ابن رشد المتوفى عام ٥٩٥ فكتب رده المشهور « تهافت التهافت » . هذا وإن أرضاء مختلف النزعات أمر عسير المنال . فقد جاء بعد ابن رشد المولى خوجه زاده

المتوفى سنة ٨٩٣ فآلف كتاباً في التحكيم بين الامامين بتكليف من السلطان العثماني محمد الفاتح بعنوان « تهافت الفلاسفة » وقف فيه بجانب أبي حامد .

على أن الغزالي اذا كان أغضب الفلاسفة برده على قدمائهم فقد أغضب بعض الفقهاء من أصحاب المذهب المالكي في الأندلس لخوضه في علم الكلام واشتغاله هو نفسه بالفلسفة زمن علي بن يوسف بن تاشفين من أواخر ملوك المرابطين وهو معاصر لمؤلف الاحياء . فلما دخلت كتب أبي حامد المغرب أمر باحراقها وتقديم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال الى من وجد عنده شيء منها .

روى الذهبي عن أبي بكر العربي ، وكان من أصحاب الغزالي ، قوله : شيخنا أبو حامد بلغ الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع . « وروى ابن تيمية هذا القول بعبارة أخرى وهي : « شيخنا أبو حامد دخل في بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر . » وهي كلمة تدل على مدى اشتغال الغزالي بالفلسفة وتأثره بمناهجهم ومناظراتهم فهو معدود أيضاً في الفلاسفة الاسلاميين .

ولما قامت دولة الموحدين في المغرب والأندلس نصرت مذهب الأشاعرة ورحبت بكتب الامام الطوسي مؤلف الاحياء وغيره من الكتب . وحكي أن محمد بن تومرت مؤسس هذه الدولة لقي أبا حامد بالشام أيام تزدهه وكان قد رحل الى المشرق في طلب العلم وحضر بعض مجالسه وبلغه خبر احراق المرابطين لكتبه فحدثته نفسه بالقيام عليهم .

ان كتب الغزالي الكثيرة ولا سيما الاحياء الواسع لا بد من أن تشتمل على عبارات تستدعي التفكير وتستجر المناقشة منها أقواله ومنها ما نقله عن غيره من العارفين فآثبته وسكت عليه . وكل منها يمكن تخريجه تخريجاً مناسباً . منها القول الذي نسب اليه وهو « ليس في الامكان أبدع مما كان » . فقليل هذا يفهم منه العجز في الجنب الالهي . وربما تلقف هذه الفكرة على عواهنها الفيلسوف الألماني لينبئ حين زعم أن عالمنا هذا هو أحسن العوالم الممكنة . والعبارة التي كتبها الغزالي في « بيا ن حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل » في الاحياء ، هي هذه : « وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدره وايمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه

بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي . وليس في الامكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل . ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل . « ولا نجد في هذا الكلام ما يعاب . ولا يجوز انتزاع الفكرة من السياق الذي وردت فيه .

ومما أنكره عليه قوله : يباح للصوفية تمزيق ثيابهم عند غلبة الحال . والعبارة التي وردت في حجج القائلين بتحريم السماع في الاحياء هي : « فان قلت : فما تقول في تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع فانهم يمزقونها قطعاً صفاراً ويفرقونها على القوم ويسمونها الخرقه ؟ فاعلم أن ذلك مباح اذا قطع قطعاً مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات فان الكرباس ( أي الثوب ) يمزق حتى يخاط منه القميص ولا يكون ذلك تضييعاً لأنه تمزيق لغرض . وكذلك ترقيع ما لا يمكن الا بالقطع الصفار وذلك مقصود ، والتفرقة على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود ومباح . ولكل مالك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ويعطيها لمائة مسكين . ولكن ينبغي أن تكون القطع بحيث يمكن أن ينتفع بها في الرقاع . وانما منعنا في السماع التمزيق المفسد للثوب الذي يهلك بعضه بحيث لا يبقى منتفعاً به فهو تضييع محض لا يجوز بالاختيار . » . وليس في هذا ما ينكر ما دام التضييع منفياً . ثم ان اللباس قد تختلف أزياءه في العصور وبين الطبقات الاجتماعية . وانا لنرى في الوقت الحاضر من هم حريصون على لباس سراويلات « الجنز » ولا سيما اذا كانت ماحة وبادية الرثاثة .

وهؤلاء الذين انتقدوه في اباحة تمزيق الصوفية ثيابهم عند السماع لم يكونوا راضين في الأصل عن اباحة السماع . ومن المعلوم أن الفقهاء في المذاهب الأربعة يكادون يتفقون على كراهيته بل يذهب بعضهم الى تحريمه . وقد أورد مؤلف الاحياء فصلاً في كتابه هذا بعنوان « آداب السماع والوجد » يُدرِك منذ الاستهلال موقفه في اباحته حين يقول : « ان القلوب والسرائر خزائن الأسرار ومعادن الجواهر . وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار في الحديد والحجر ، وأخفيت كما أخفي الماء تحت التراب والمدر . ولا سبيل الى استثارة خفاياها الا بقوادح السماع ولا منفذ الى القلوب الا من دهليز الأسماع . فالنغمات الموزونة المستلذة

تُخرج ما فيها وتُظهر محاسنها أو مساوئها فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه ، كما لا يرشح الاناء إلا بما فيه . فالسمع للقلب محك صادق ومعيار ناطق » . ولكن منهج الغزالي في البحث منهج جدلي فهو يعتمد أيضاً الحدود المتقابلة في الموضوع الذي يتناوله لينتهي إلى ما يراه الأولى والأصح . وهو الإباحة في هذا الأمر . ذلك أنه لم يثبت نص عن النبي في تحريمه ولا قياس يوجب التحريم مع أن ثمة دلائل على إباحته في الأصل وهو في هذا يخرج عن أمثاله من فقهاء الشافعية وينضم إلى أمثاله من رجال التصوف كأبي طالب المكي وأبي عبد الرحمن السلمي . ثم إن القياس هو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب وهذه أمور حسنة يستلذها الطبع لأن لكل حاسة لذة خاصة ولذة السمع الصوت الطيب الموزون فكيف إذا انضاف إليه المعنى الجميل المستقيم وتحرك القلب عاشقاً للجمال العلوي . وليس في هذه الأمور منفردة ولا مجتمعة ما يحرم . بل إنه قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج .

وإذا كان السماع يتعلق بضروب المستمعين فلا شك أن أعلى المراتب « سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقاءه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه . فالسمع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ومُورٍ زناد قلبه ومستخرج منه أحوالاً من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها يعرفها من ذاقها وينكرها من كل حسه عن ذوقها . وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية جداً مأخوذاً من الوجود والمصادفة أي صادف من نفسه أحوالاً لم يكن يصادفها قبل السماع الخ . . . »

وإذا أطلق المؤلف لفظ عشق الإنسان لله وهو ما يرفضه أصحاب المذهب الظاهري والحنابلة فإنه يذهب على خلافهم إلى أن اسم العشق على الله حقيقة وعلى غيره مجاز محض . ثم يتشدد فيقرر أن الناقص القريب في نقصانه من البهيمة قد لا يدرك من لفظة العشق إلا طلب الوصال الذي هو عبارة عن تماس ظواهر الأجسام وقضاء شهوة الوقاع . « فمثل هذا الحمار ينبغي ألا يستعمل معه لفظ العشق والشوق والوصال والأنس بل يجنب هذه الألفاظ كما تجنب



البهيمة النرجس والريحان وتخصص بالقش والحشيش وأوراق القضببان •  
فان الألفاظ انما يجوز اطلاقها في حق الله تعالى اذا لم تكن موهمة معنى يجب  
تقديس الله تعالى عنه • والأوهام تختلف باختلاف الأفهام •

ومما أنكره عليه قوله في الاحياء في صدد فائدة الخلوة مع رفع الشواغل  
وضبط السمع والبصر وتفريغ القلب بالرياضة : « وليس يتم ذلك الا  
بالخلوة في بيت مظلم وان لم يكن له مكان مظلم فيلف رأسه في جيبه أو يتدثر بكسائه  
أو إزاره ففي هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية • »  
وفي رأينا أن المراد بالخلوة التعرض للالهام وحل بعض القضايا المستغلقة والنجوى  
الخفية الروحية القوية •

وأنكروا عليه اي راده في الاحياء قول أبي سليمان الداراني : « من تزوج فقد  
ركن الى الدنيا » • والزواج من سنة الرسول • وعندنا أن الغزالي يريد مع  
أبي سليمان أن ينبه المتزوج على ألا يشغله زواجه عن دينه •

وثمة اعتراضات شبيهة تصل الى العشرين يوردها الحنابلة لا حاجة لمرضاها  
لأن أخذ بعض الجمل والأفكار منتزعة من سياقها ومن نطاق فلسفة المؤلف ونظام  
آرائه تنطع وتجن لا مسوغ لهما ولا سيما اذا كان المؤلف من أمثال أبي حامد •

كل ما نريد هنا في الختام أن نناقشه فيه هو أنه ألجم العوام عن علم الكلام  
وهو في ذلك على صواب فان خوضهم في هذه الأمور يبعث على الفوضى  
والاضطراب وعدم التدقيق والابهام • فلكل ميدان رجاله ولكل حلبة فرسانها •  
وهو قد كتب للملك محمد أحد ولدي ملكشاه وقد أسلفنا حروبه مع أخيه كتاباً  
باللغة الفارسية ترجم قديماً الى العربية « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » وفي  
هذا الكتاب كما في غيره يريد أن يثبت ما استطاع بقلمه المؤمن البليغ كيانه  
سياسياً واجتماعياً واقتصادياً بدأ يتداعى حتى انه لمس خواءه فلجأ الى الاعتزال  
كأنه يئس من صلاحه فهلاً لجأ في كتاباته في جانب الالجام الى بيان حقوق الشعب  
والعوام على الملوك والأمراء والى حث الشعب على المطالبة بها ؟ نظن أنه لو بدأ  
بالاعتزال والتأمل قبل بلوغ المجد الاجتماعي الخاوي لفعل ذلك ولناضل مع الشعب  
ولكنه اذ ذاك ربما تعرض للحبس والاعتقال أو القتل • ان عصره عصر الملوك  
لا عصر الشعوب ، عصر التحكم لا عصر الشورى •

وأياً كان الأمر فليس لنا الا أن نعجب ببحوث أبي حامد الخالدة وكتبه  
ورسائله وفتاويه الأبدية وغوصه على دقائق الفكر والفلسفة ومشكلات النفس  
والاجتماع فعل الفواص الماهر الذي يعرف كيف يلتقط اللآلئ والجواهر .  
أوليس لنا حين كسر مغزله إذ لم يجد نساجاً لغزله الدقيق أن نحياه في ختام هذا  
الحديث تخية شعرية أوحى هو بها الينا تلخص أعماله وعصره وعبقريته :

وغصت الى أعماقها بتأمل  
وكم من محق قد وجلت ومبطل  
تذب عن النور القديم المنزّل  
مصاييح تهدي في الظلام المفضل  
تشع سلاماً كالنشيد المرتل  
به درر الاقناع في كل محفل  
هموم الأناسي بالبيان المفصل  
فكان لديهم منهلاً أي منهل  
فما عاجل يفنى كباق مؤجل  
ولم تر في بغدادهم من معول  
نسبت بقول العاتب المتعلل :  
لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي »  
وآثرت عيش الزاهد المتجمل  
لطافاً توارت عن عمّ متمول  
جحافل تترى جحفلاتو جحفل  
فيالشعوب بالضغينة تصطلي  
فلسطين ذاقت كل منخر ومذهل  
كوابيس في ليل من الغي أليل  
فيا ويل مبلوء ويا ويح مبتل  
فيا لك من عهد أغر محجل  
وكل نفيس طارف أو مؤثل  
فأعظم بأبناء الكفاح وأجمل  
بناة لآتٍ عن قريب سينجلي  
تحققت الآمال للمتأمل  
نصادفها في واقع متمثل  
بوجه على رغم الدجي متهلل  
تغازل من أعدائنا كل مقتل  
ونمشي على درب الى النصر موصل

رأيتَ بحاراً للعلوم فغضتها  
وناقشت أرباب العقول بحكمة  
وكنت وحيداً مثل جيش مظفر  
كتبت من الكتب المئات فأصبحت  
الى اليوم أحياء العلوم منارة  
به غرر الامتاع في كل مجلس  
تحرّيت ما استطاع اليراع تقصياً  
وانقذت ظمأى للرشاد بمنقذ  
ونوهت بالتقوى أماناً للذي النهى  
ولما طغت طرق التفريق بينهم  
ولاح لك التجريد يلمح بالمنى  
« غزلت لهم غزلاً دقيقاً فلم أجد  
نبذت حياة الناعمين وعزهم  
لعلك تبلو في الوجود معانياً  
رأيت الصليبيين كيف تدفقوا  
غرايب سوداً دأبها الضغن والأذى  
الى الآن لما ينته الغزو عندنا  
مذايح صكت مسمع الدهر انها  
لقد كان تمزيق الربوع بلية  
إذا رجع التوحيد في عهد يقظة  
فداء لتوحيد البلاد نفوسنا  
كانا ولدنا للكفاح مقدراً  
سلام على الماضي التليد واننا  
متى اجتمع التنظيم والعلم والحجا  
منى تترامى في الخيال لعلنا  
سنرنو الى الدنيا وان جنحت بنا  
ونغزل من اجماعنا بمغازل  
نغني ونبني والهموم كثيرة